استقبال أعمال فدوى طوقان بالألمانية
مقارنة مع استقبالها بالعربية
(الترجمة والدراسات)

د. عادل الأسطه

١. مدخل :

أرغب في إعطاء تصور عن حضور الأدب الفلسطيني بالألمانيـة وعليـه فإنني أشير إلى جانبين من جوانب هذا الحضور : يتجسد **الأول** فـي الترجمـة[١] **والثاني** في الدراسات[٢]، وهذه سارت أيضا في اتجاهين يتمثل الأول في دراسـة أدباء بأعيانهم مثل غسان كنفاني ومحمود درويش، فيما يتنـاول الثـاني ظـواهر معينة.

وسوف أقف هنا أمام استقبال نصوص فدوى طوقان بالألمانيـة : ترجمـة ودراسة، مقارناً بين القصائد التي ترجمها ألمان وتلك التـي ترجمهـا مترجمـون عرب نقلوها إلى لغات أجنبية وبخاصة الإنجليزية، وسوف يكون التركيـز علـى الأسماء النسوية، وإن كانت هناك إشارات إلى دراسات أنجزها ذكور.

٢. الأدب الفلسطيني مترجماً إلى الألمانية :

يلحظ من يلقي نظرة على النصوص الأدبية الفلسطينية المترجمة أيا الألمانيـة إلى ما يلي :

أولاً : لقد بدأت ترجمة نصوص من هذا الأدب ضمن ترجمة نصوص مـن الأدب العربي، وكان نص كنفاني " رجال في الشمس " قد صـدر فـي ألمانيـة الشرقية عام ١٩٧٠ مع نصوص قصصية لكتاب من العالم العربي.

ثانياً : والشيء نفسه يمكن قوله فيما يمس الترجمـات الشـعرية، فقـد ترجمـت (آنيماري شيمل) عام ١٩٧٥ قصائد لمحمود درويش وسميح القاسم وفدوى

طوقان ضمن مختارات من الشعر العربي.

ثالثاً : بدأ الالتفات إلى أسماء بعينها، منذ نهاية السبعينيات، فقد عكف مترجمـون عرب وغير عرب علـى نقـل نصـوص شعرية أو كتب نثرية، فترجموا " يوميات الحزن العادي " لمحمود درويش، و " دفاتر فلسـطينية " لمعـين بسيسو، ومختارات لمحمود درويش، وأخرى لتوفيق زياد، وغالباً ما كانت هذه الترجمات تصدر عن تيارات ودور نشر يسارية.

رابعاً : لقد التفت في بداية الثمانينات إلى غسان كنفاني وسحر خليفـة، وتصـدر هذان قائمة الأدباء المترجمة أعمالهم، والتفت في بداية التسـعينيات إلـى إميل حبيبي، واحتفل به بعد فوزه بجائزة الدولة الإسرائيلية للآداب.

ويلاحظ مما سبق أن فدوى طوقان، وهي ذات حضور أدبي بارز في المشهد الثقافي العربي المعاصر، لم تحظ باهتمام لافت، خلافاً لسحر خليفة التي حظيـت بعناية المترجمين والدارسين على السواء، وقد يتساءل المرء عن السبب في ذلك : فهل يعود السبب إلى طبيعة الجنس الأدبي؟ أم إلى غيـاب الحضـور الشخصـي الفاعل، لفدوى، مع الألمان ؟ أم يعود إلى أن طوقان أصبحت، بعد حرب ١٩٦٧، شاعرة ذات توجه وطني تكتب قصائد تصور فيها وحشية العدو، وعليه فإن الحملة الشعواء التي شنها الإسرائيليون على قصائدها جعلت بعض المستشرقين يعزفـون عن ترجمتها ؟

٣. نصوص فدوى المترجمة إلى الألمانية :

تدرج النصوص القليلة التي ترجمت لفدوى عام ١٩٧٥ ضـمن مختـارات الشعر العربي المعاصر[٣]، وهذا يعني أن الأستاذة (آنيماري شيمل) رأت في فدوى شاعرةً عربية معاصرة تقف إلى جانب أبرز رواد الشعر العربي المعاصر، وقـد وقع اختيار (شيمل) على الأسماء التالية : نازك الملائكة والسياب والفيتوري وعبد الصبور و حجازي وطوقان ودرويش والقاسم وقباني وتوفيق صـايغ وأدونـيس، وهذه الأسماء، ولا شك، أسماء شعرية عربية بـارزة لهـا، حتـى عـام ١٩٧٥، حضورها الشعري، وقد ركزت (شيمل) على البياتي وأدونيس.

ويجدر الوقوف أمام مقدمة المختارات لنعرف لماذا اختارت (شـيمل) هـذه القصائد، لفدوى ،دون غيرها ؟

تأتي المترجمة على الأفكار المثيرة في الشعر العربي وتعددها وتحصرها في الأفكار التالية : فكرة تخاف البلاد العربية مقارنةً مع تقدم الغرب ونجاحه، وفكرة سؤال الدين حيث يقف الشاعر أمام ا يسأله متشككاً: لماذا تركت شـعب نبيـك يعاقب؟ ويبرز هذا السؤال في الأشعار التي كتبت بعد حربي ٤٨، ١٩٦٧ وفكـرة فلسطين، وهذه فكرة مهمة جداً.

وتشير (شيمل) إلى صلة الشعر العربي الحديث بالشعر العـالمي المعاصـر والشعر العربي القديم، وتذكر أن الشعراء العرب قد تأثروا بـ (ت.س. آليـوت) وبـ (برتولد بريخت) - وإن كان تأثير الأدب الألماني قليلاً - وبالأدب الروسي وبخاصة الشاعران (غوركي) و(ماياكوفسكي)، وبالشاعر التركي (ناظم حكمـت) وقد نحت نحوى من تأثير هؤلاء فيما تأثرت، بوضوح، بالتراث العربي الإسـلامي بعامة وبالقرآن الكريم بخاصة، وتقف (شيمل)، على ما يبدو، أمام المقطع التـالي من قصيدة "أمام الباب المغلق" :

مفتوحاً كان الباب هنا والزيتونة
خضـراء، تسامـت فارعــة
تحتضـن البيــت
والزيت يضيء بلا نار (ص ٣٤١/ أ.ك)

وهو مقطع متأثر بالآية ٣٥ من سورة النور﴿ ا نور السـموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرةٍ مباركة، زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ يكاد زيتها يضـيء لـو لـم تمسسه نار ..... ﴾.

وتبين (شيمل) أسباب اختيارها ووقوفها عند بعض الشعراء وقفـة مطولـة، فهي ترى أن ما يلائم الذوق العربي قد لا يلائم الذوق الغربي، وأن عامـل اللغـة مهم جداً، ولهذا تترجم للسياب الذي يحبه قراؤه العرب للغته وعمـق (موتيفاتـه)، وتشير بوضوح إلى استبعادها قصائد لأسباب سياسية على الرغم من أن نوعيتهـا الشعرية عالية وجاذبيتها قوية، وهنا تذكر (شيمل) شـعر المقاومـة الفلسـطينية،

وتستشهد بما أورده (غوته) في الديوان الغربي الشرقي :"إن عظمـة الشخصـية، الجديد، والقسوة الصحيحة للشخصي هي هنا، حقا، اب الشعر"، وتشير (شيمل) إلى أثر العامل الشخصي في الترجمة وترى أنه عامل مهم لا يمكـن نفيـه، فـالمرء يستطيع أن يترجم الشعر فقط عندما يتماثل مع القصيدة، وهذا عامل حظ لا يتـأتى للقصائد الموضوعية الجيدة بسهولة.

ونستطيع من خلال الفقرة السابقة أن نفهم لماذا لم تترجم (شـيمل) قصـائد سياسية لفدوى، وبخاصة حين نقارن بـين مختاراتهـا ومختـارات المترجمـات العربيات، فما هي القصائد التي ترجمتها (شيمل) لطوقان؟ لقد ترجمت لها القصائد التالية :-

- تشك بحبي من ديوان " وجدتها " .
- مقطع من " مرثاة إلى نمر " من ديوان " أمام الباب المغلق " .
- مقطع من قصيدة " أمام الباب المغلق " .
- قصيدة " إلى السيد المسيح في عيده " من ديوان " الليل والفرسان " .
- والأخيرة قصيدة سياسية وهي الوحيدة التي نظمت بعد عام ١٩٦٧.

وتظهر لنا نظرةٌ على مضامين القصائد أنها تتمحور حـول الحـب، وهـو موضوع لافت للنظر في أشعار فدوى، والرثاء، وهذا أيضاً موضوع طـاغٍ فـي أشعار الشاعرة المبكرة، وسؤال ا ، وقصيدة " أمام الباب المغلق " ذات نغمة حادة إزاء ا حيث تسأل الشاعرة ربها عن سبب تخليه عنها، ويبدو تعلقها به غير ذي جدوى، وسؤال السيد المسيح عله ينقذ القدس من المحتلين الجدد.

ويبدو أن ترجمة (شيمل) للقصيدة الرابعة تعود بالدرجة الأولى إلى توظيف رمز السيد المسيح فيها، ولعل ما يدعم هذا الرأي إشارة (شيمل) في المقدمة إلـى ظاهرة بارزة في الشعر العربي المعاصر هي ظاهـرة توظـيف رمز المسـيح. تقول :-

" طبعاً رمز المسيح يأخذ لدى الشاعر العربي المعاصر لوناً آخـر. ينـادى المسيح من الشعراء ليحمي مدينته، وهو يظهر على أنه ضحية لليهود الذين قتلـوه مرةً، كما يقتلون مدينته.." (ص٢٧) .

ويرتفع صوت فدوى في قصيدتها مخاطبةً المسيح عله ينقذ المدينـة التـي صلبها شيطان ملعون يمقته حتى الشيطان، ولعل ما ذهبت إليه (شيمل) وهي تكتب عن فكرة فلسطين في الشعر العربي مستوحى من قصيدة طوقان :

" قبل كل شيء، بعد حرب ١٩٦٧....، وخسارة القدس ، ثالث المـدن بعـد مكة والمدينة لدى المسلمين، ألهمت الشعراء دائماً لكي يتنهدوا ويصرخوا (ص١٨) واعتمادا على النصوص المترجمة أود أن أسوق الملاحظات التالية :

أولاً : لم تترجم (شيمل) أي نص من "وحدي مع الأيام "، وقد يعود السـبب إلـى أمرين أولهما أنها لم تتماثل شخصياً مع قصائده، وثانيهما أن أغلب قصائده كانت عمودية الشكل، وقد أشارت (شيمل) في المقدمة إلى أنها لن تتـرجم قصائد كتبت قبل عام ١٩٤٥، مراعاةً لذوق القارئ الألماني الذي قد يشعر وهو يقرأ قصائد ذات نزعة خطابية أنه يقرأ قصائد ألمانية كتبت حوالي عام ١٩٠٠.

ثانياً : يستطيع المرء، بناء على ما أوردته (شيمل) في المقدمـة حـول الأشـعار السياسية، أن يدرك لماذا لم تركز على القصائد ذات الموضوع السياسـي، ويمكن أن نضيف هنا سبباً أخرى يخص المترجمة نفسها، و(شيمل) دارسة وعالمة وتدعو إلى الحوار بين الأديان، وتظهر قصائد فدوى ذات الموضوع السياسي اليهود قساة ووحوشاً و وقتلة، وإبراز هذه الصورة لليهود تتناقض وما تدعو إليه (شيمل)، عدا أن هذا قد يورطها مع الإسرائيليين ومع بعض زملائها اليهود في الجامعات التي تدرس فيها، و(شـيمل) امـرأة مسـالمة بطبيعتها.

ثالثاً : لم تتأثر وهي تترجم شعر فدوى طوقان بموجة الاهتمام بالأدب النسوي التي برزت في أوروبا وأمريكا، وهذا يعني أنها ترجمت أشعار فدوى لإدراكهـا مكانتها الشعرية المتميزة، لا لكونها أنثى .

٤- بين ترجمة (شيل) وترجمات يسرة صلاح وسلمى الخضراء الجيوسي :

هنا يمكن الالتفات إلى يسرة صلاح[٤] (٢٣-١٩٩٣)، وسـلمى الخضـراء الجيوسي[5]، ويسرة من مدينة نابلس، وقد أنفقت فيها معظم سنوات حياتها، وهـي مربية درست في الجامعة الأمريكية في بيروت، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، كما زارت بعض دول أوروبا الغربية في رحلة علمية، وكانت نشيطة وطنياً وذات مواقف مناهضة للاحتلال[٦] .

وخلافاً لـ(شيمل) التي أصدرت ما يربو على الثمانين مؤلفاً، لم تصدر يسرة سوى كتاب مذكرات وثلاث ترجمات، ترجمت قصصاً قصيرة من الإنجليزية إلى العربية، وترجمت قصائد مختارة لفدوى إلى الإنجليزيـة، ونقلـت إلـى العربيـة مذكرات (موسى شاريت).

وأما القصائد التي اختارتها من أشعار فدوى فهي :

" مدينتي الحزينة " و" إلى الوجه الذي ضاع في التيه " و" حمزة " و" خمس أغنيات للفدائيين " و" ذهب الذين نحبهم " و" أنشودة الصيرورة " وجميع هذه مـن ديوان " الليل والفرسان "، و" نبوءة العرافة " و" كوابيس الليل والنهار " و" ايتـان في الشبكة الفولاذية " وهذه من ديوان " على قمة الدنيا وحيدا " و" النورس ونفـي النفي " وهذه من ديوان " تموز والشيء الآخر " والقصائد كلها كتبـت بعـد عـام ١٩٦٧.

وتقول لنا نظرة على القصائد المترجمة ما يلي :

أولاً : لم تترجم المترجمة أية قصيدة ذات طابع شخصي.

ثانياً : لم تلتفت إلى قصائد الحب، ويبدو أن ما ألم بفدوى بعد عام ١٩٦٧ حيث لم تكتب قصائد غزل، انعكس بدوره على يسرة، وقد أشارت في المقدمة التي كتبتها لقصصها المترجمة (١٩٨٤) إلى هذا فكتبت :-

"وكنت أرغب في إضافة قصص أخرى لتصل إلى عشرة على الأقل، إلا أن الظروف التي نمر بها منذ عام ١٩٦٧ جعلتني أتردد في جدوى ترجمة مـا ليس له علاقة بالوضع القائم".

ثالثاً : خلافاً لـ (شيمل) التي اختارت من قصائد الرثاء قصيدة في رثـاء الأخ، اختارت يسرة قصيدة رثاء كتبتها فدوى في أبطال عملية فردان.

ويستطيع القارئ، من خلال ملاحظة الأفكار الرئيسية للقصـائد، أن يـرى الفارق بوضوح :

تتمحور قصائد (شيمل) المختارة حول :-

- العلاقة بين رجل وامرأة ،ابتعدت عنه بسبب السفر فآخذ يشك بحبها، وحين تعود إليه تعود بكل تعطش قلبها، وتطلب منه ألا يشك في حبها.
- موقف الأخت من حادث موت الأخ والتعبير عن عواطفها.
- سؤال ا عن مكانه.
- مخاطبة السيد المسيح في عيده علّة ينقذ القدس من براثن المحتلين.

وتتمحور القصائد التي ترجمتها يسرة صلاح حول :-

- ما ألم بمدينة الشاعرة إثر الاحتلال .
- انعكاس الاحتلال على نفسية الشاعرة وتضاؤل موضوع الحب .
- اقتحام جنود الاحتلال البيوت ومصادرة الأراضي وامتلاء العالم بالكوارث.
- حرب أيلول وملاحقة الأنظمة العربية الفدائيين .
- تمجيد الفدائي والشعب الصبور والحث على التمسك بالأرض .
- تمجيد الإنسان البسيط (حمزة) الذي ينسف بيته ويظل متمسكاً بالأرض .
- رثاء كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار (ضحايا فردان) .
- تمجيد أطفال انتفاضة ١٩٧٦ .
- تمجيد دلال المغربي وأبطال عملية الشاطئ .
- مخاطبة الطفل اليهودي (إيتان) آملة ألا يكون، حين يكبر، ضحية نظامه .

وهنا يمكن الوقوف أمام موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر التي أنجزتهـا د.سلمى الخضراء الجيوسي الشاعرة والباحثة والناقدة والمترجمة ومديرة مؤسسـة (بروتا) التي أنشأتها عام ١٩٨٠ لنشر الثقافة والأدب العربيين في العالم النـاطق بالإنجليزية.

ولدت سلمى لأب فلسطيني وأم لبنانية وأمضت طفولتها وشبابها المبكر فـي عكا والقدس، ثم درست الأدبيين العربي والإنجليزي في الجامعة الأمريكيـة فـي بيروت وحصلت على درجة الدكتوراه في الأدب العربي من جامعة (لندن) وهـي ذات ثقافة واسعة[٧]، وبهذا تتماثل مع (شيمل).

تبدي سلمى رأيها في مكانة فدوى الشعرية فتكتب :

" كان أشهر من عرف من الشعراء في فلسطين، إبان عهد الانتداب، فـدوى طوقان التي بقيت في الضفة الغربية ..."[٨](ص ٤٧).

" وقد تطورت بشكل مختلف، وظلت شهرتها تنمو نمواً مطرداً شأنها شـأن أبي سلمى، وخاصة بعد حرب ١٩٦٧، ولكنها عكفت على تطوير أسلوبها الخاص في التعبير بين عامي ٤٨، ١٩٦٧، فأغنت الشعر العربي الحديث بالشعر الرشـيق البعيد عن التكلف، المعبر عن اكتشاف الأنثى لذاتها وفوزها في تحقيق الذات، كما خدمت الشعر بتحريرها، للعنصر العشقي، وبتمهيدها الطريق للصـدق العـاطفي، متفوقة في ذلك على معظم أبناء جيلها من الشعراء الرجـال، و خلافـاً لمعظـم الكاتبات اللاتي بدأن الكتابة بعد ١٩٤٨ - أي في جو نفسي سادته روح الـرفض للمفاهيم والقيم البالية - أظهرت فدوى طوقان مقدرةً فائقة على التعبير عن بهجتها بتحرر الروح والجسد مع الحفاظ على اللياقة، دون الانزلاق نحو ما شاع آنئذٍ في بعض الأدب النسوي من الجرأة التي لا يضبطها ضابط ..." (ص ٤٨) ؟

وترى الجيوسي أن مكانة فدوى المتميزة أصبحت بعد حرب ١٩٦٧ حيـث تحولت إلى صوت من أقوى الأصوات المنطلقة دفاعاً عن شعبها وعـن حقوقـه، وكثيراً ما كانت تظهر أمام الحشود الضخمة في الحملات سعياً للحفاظ على إيماناً الناس بجدوى النضال والمقاومة." (ص ٤٩).

وقد اختارت الجيوسي القصائد التالية، من شعر فـدوى، للقـارئ الـذي يجيـد الإنجليزية :

- "نبوءة العرافة" من ديوان "على قمة الدنيا وحيداً ".
- "الطوفان والشجرة" و"أنشودة الصيرورة" "وكفاني أظل بحضنها" من ديوان "الليل والفرسان".

وتعبر طوقان في قصيدة "كفاني أظل بحضنها" عن ارتباطها بأرضها، وترد في "الطوفان والشجرة" على أحاديث بعض الصحف والإذاعات الأجنبية المعاديـة التي ظهرت أثر حرب ١٩٦٧ لتطعن في الشعب العربي، وتبـرز فـي القصـيدة ظاهرة التفاؤل واضحة.

وتقترب النصوص التي اختارتها من تلك التي اختارتها يسرة صلاح وتختلف عن تلك التي اختارتها (شيمل). حقاً إن ترجمة (شيمل) كانت عـام ١٩٧٥، فيمـا تمت ترجمة يسرة عام ١٩٨٨ وترجمة الجيوسي عام ١٩٩١ - أي فترة الانتفاضة - وكان ثمة فارق على صعيد المقاومة، إلا هذا ليس السبب الرئيسي في الاختيار، فالانتماء الوطني ليسرة وسلمى أسهم إسهاماً كبيراً في نوعية الاختيار، ويبـدو أن اختيار كلتيهما لقصيدة " أنشودة الصيرورة " كان اختياراً مرهوناً باللحظة الزمنية، فالقصيدة تصف الجيل الذي ولد عام ١٩٦٧ وقاد انتفاضة الطلبـة عـام ١٩٧٦، وكان الأطفال، في انتفاضة ١٩٨٧ ذوي فاعلية كبيرة .

وعلى الرغم من أن ترجمة أشعار الشاعرة إلى الإنجليزية ليسـت مركـز البحث هنا، إلا أن الإشارة إلى هذه الناحية تبدو مجدية لملاحظة الفارق بين ترجمة المترجمات العربيات وترجمة المترجمات الأجنبيات أو محررات الكتب .

لقد صدرت عام ١٩٧٦ مختارات تحت عنوان "الصوت الآخر" شعر النساء في القرن العشرين مترجماً[٩] وأشـرف علـى تحريرهـا (Joanna Bankier)، واختير لفدوى مقطع من قصيدة "إليهم وراء القبضان" وهو مقطع " مفكرة هبـةً "، ولا يتجاوز المقطع، وهو من ديوان "على قمة الدنيا وحيدا "، الصفحة الواحدة .

وصدر عن دار نشر (بنغوين) كتاب الدار للنسـاء الشـاعرات[١٠]، وضـم قصائد لشاعرات من عصور مختلفة، وفيه قصائد مختارة للخنساء ولولاّدة، وهناك قصيدة لفدوى عنوانها "بعد عشرين عاماً"، وهـي مـن ديـوان "أعطنـا حبـاً"، وموضوعها العلاقة بين الرجل والمرآة وفعل الزمن وتأثيره على الإنسان.

وأصدرت (Carolyn Forche) عام ١٩٣٣ كتاباً عنوانه " ضد النسيان " : شعر شاهد على القرن العشرين [١١] وضمت المختارات قصـائد لشـعراء يزيـد عددهم عن المائة والثلاثين، وهي مترجمة عن عشرين لغة، وأدرجت قصائد فدوى مع قصائد لأدونيس ومحمود درويش وقصائـد شـعراء عبريين تحـــت عنوان " الحرب في الشرق الأوسط "، واختيرت القصائد التالية لفدوى " الوجه الذي ضاع في التيه " و " بعد عشرين عاماً " و" لا أبيع حبـه " و" مـن وراء القضـبان " . مختارات" ومقطع من أنشودة "أنشودة الصيرورة، وضد النسيان يتضمن فقط إنتاج

الشعراء الذين عانوا من حالات شديدة، كما جاء في رسالة للشاعرة من الجامعة المحررة.

وقد ترجمت لفدوى، ضمن مختارات أخرى قصائد قليلة، ترجم لها (آرثور جون أربري)[١٢] عام ١٩٥٠ قصيدتين، وعيسى بلاطة عام ١٩٧٦[١٣] قصيدة، وعبد ا العذري[١٤] عام ١٩٨٦ قصيدة، واختار لها د. إبراهيم داوود أربع عشرة قصيدة ليدرجها في كتاب خاص[١٥].

فدوى طوقان والدارسون الألمان

لم يكن حظ فدوى لدى الدارسين الألمان بأفضل من حظها لدى المترجمين، فلم يلتفت إليها كما التفت إلى غسان كنفاني ومحمود درويش اللذين حظيا بعناية المستشرقين واهتمامهم، ولم تنجز، في حدود ما أعرف، أية دراسة مستقلة عن أشعارها، خلافاً لسيرتها الذاتية التي كانت موضع دراسة مستفيضة، فقد أنجزت عنها طالبة عربية ألمانية الجنسية رسالة ماجستير صدرت عام ١٩٩٤ عن دار نشر معروفة، هي دار نشر (كلاوس شفارز) في برلين، وهي مختصة عموماً بنشر الدراسات الإسلامية.

وكان الدكتور (استيفان فيلد) قد درسها، حين درس ظاهرة اليهودية والمسيحية والإسلام في الشعر الفلسطيني (١٩٨٤)[١٦]، وقد سارت دراسته في ثلاث مراحل : نهاية ق١٩ حتى ١٩١٧ و منذ وعد بلفور حتى ١٩٤٨، ومنذ ١٩٤٨ حتى الآن، ووقف في القسم الثالث أمام قصيدتي فدوى "إلى السيد المسيح في عيده " و"الإله الذي هوى " وتستلهم فدوى طوقان في الأولى رمز السيد المسيح، وتصف في الثانية تجربة موت ا . وقد رأى الدارس في قصائدها جرأة قلما بلغها شاعر عربي في حينه :

" تظهر الشاعرة حناناً أقل، معترضة اعتراضاً شديداً على ملك مسيطر بلا معنى، هذا الملك يرمز إلى الحبيب غير الوفي كما لو أنه رمز ا ، هذه القصيدة هي واحدة من أكثر قصائد الأدب العربي الحديث نقداً للدين ".

ولعل نادية عودة في دراستها " الشعر- جسر نحو العالم الخارجي -، دراسة في سيرة فدوى طوقان الذاتية "[17]، لعلها أنصفت الشاعرة قليلاً، ونادية عودة هي من مواليد مدينة نابلس وأمها ألمانية وتعيش منذ فترة طويلة في ألمانيـا، وكـان الدافع وراء دراستها فدوى أنها - أي نادية - من مدينة نابلس، وأنها تحب قراءة السيرة الذاتية.

وجاءت الدراسة في ثلاثة أجزاء: المقدمة والمتن والخاتمة، ووقفت الدراسة في المقدمة عند القضايا التالية :

سيرة موجزة لفدوى وعرض أعمالها الأدبية، وتبيان جنس السيرة الذاتية في الأدب العربي، ومفهوم الفصل بين الذكور والإناث في المكان ودخول المرأة إلـى الحياة العامة، والسيرة الذاتية النسائية في العالم الإسلامي، وسيرة فـدوى الرحلـة الجبلية ...الرحلة الصعبة ".

ورأت الدارسة، وهي تعرض النقاط السابقة، ما يلي :-

لقد كانت السير الذاتية في الأدب العربي، قياساً إلى الأدب الغربي، تعاني من نقص واضح، وغالباً ما لجأ الكتاب العرب إلى كتابة سيرهم الذاتية من خلال قالب روائي، ويعود السبب في ذلك إلى الثقافة التي تفصل ما بين العام والخاص، وإلى الرقيب الاجتماعي على الأديب، وهو رقيب قوي يفوق قوة الرقيـب الحكـومي، وتأتي أهمية السيرة الذاتية لفدوى أنها سيرة ذاتية لامرأة تقـتحم عـالم الرجـال المحافظين، وأنها أيضاً تقص حياة امرأة، ولكنها في الوقت نفسـه تقـص سـيرة فلسطين .

وتناولت في المتن، وهو صلب الدراسة، الموضوعات التالية :

١. السيرة الذاتية نصاً قصصياً، وعالجت فيه نقطتين هما خطبة المؤلفة وقصصية السيرة الذاتية .
٢. عالم المنزل، وتناولت فيه المكان والنساء، وأبرزت ثلاثة نماذج نسوية مختلفة أثرن في حياة فدوى وهن : الأم والشيخة وأم عبد ا .
٣. عالم الرجال : وأبرزت صورة الأب والديوان .
٤.الطبيعة : وكتبت عن الطبيعة ملاذاً للشاعرة في طفولتها .

٥. الشعر : جسر نحو العالم الخارجي، وأبرزت هنا صلةً فدوى بأخيها إبـراهيم ودوره في تعليمها الشعر، ووقفت أمام دخول الشاعرة إلى عالم الشعر وبينت صلتها بالخنساء ودنانير، واستقلال فـدوى عن أخيها شـعراً، وشعرها والسياسة .

٦. الرحلة إلى إنجلترا وتصوير بريطانيا قاطعةً وبلداً حضارياً .

وقارنت في الخاتمة بين فدوى والأديبة الألمانية التي عاشـت فـي نهايـة ق(١٨) وبداية ق(١٩) وهي (كارولين فون جوندررودة)، وأوضحت تأثر فـدوى بكتاب الأديب الألماني المشهور (غوته) "آلام فرتر"، وبخاصة ترجمة أحمد حسـن الزيات له .

وليس هناك من شك في أن دراسة نادية عودة، وهـي تحفـل بالنصـوص المقتبسة من سيرة فدوى، تنجز أمرين : الأول أنها قدمت للقراء الألمـان امـرأةً فلسطينية مكافحة. والثاني أنها، من خلال ترجمة بعض الفقرات، عرفت بنصوص من سيرة فدوى .

وتحفل دراسة الكاتبة بالعديد من المقارنات مع كتاب عرب مثل طه حسـين وهدى شعراوي وليلى خالد، وكتاب غربيين مثل (كارولين فـون جونـدر رودة) و(سيمون دي بوفوار) و(غوتة) .

غير أن ما يجدر الوقوف أمامه هو الفقرة الأولى من القسم الثاني : السـيرة الذاتية نصاً قصصياً : خطبة المؤلفة وقصصية السيرة الذاتية، وإذا كانت الكاتبـة ركزت على مضمون رحلة جبلية، فإنها فيما كتبته تحت عنوان "قصصية السـيرة الذاتية "، بإيجاز، أثارت قضية تركت أثرها على أسلوب الكاتبة في كتابتها كلهـا. تقول نادية :"رحلة جبلية ...رحلة صعبة " هي سيرة ذاتية، وهي في الوقت نفسه، كما تقول الشاعرة، قصة، وهي باعتبارها افتراضية، مثل سيرة حياتها من خـلال استعارة الماضي والتأمل فيه ،تعطي معنى خاصاً ..."(ص٢١).

وقد وقفت الكاتبة في حكمها هذا أمام عبارة فدوى في تقديمها نصها، وإن لم تنقله حرفياً. تقول فدوى في الصفحات الأولى : "وقصتي هنا هي قصة كفاح البذرة مع الأرض الصخرية الصلبة إنها قصة الكفاح مع العطش والصخر ...[١٨] (ص٩ رحلة).

وهكذا أخذت الدارسة تتعامل مع السيرة على أنها سيرة ذاتية ونص قصصي، دون أن تميز بين كلمة قصة النص، وكلمة قصة فنياً، والطبعة التي اعتمدتها الدارسة هي طبعة دار الشروق الصادرة في عمان، وقد أبرمت المؤلفة فيها عقداً خاصاً مع القارئ يتمثل في أن "رحلة صعبة ...رحلة جبلية " نص سيرة ذاتية أساساً.

وغالباً ما أخذت الدراسة ،بناء على تأويلها كلمة "قصتي" وكلمة "قصة"، تتعامل مع السيرة على أنها نص قصصي، ومن هنا أكثرت من مصطلحات أنا القاصة، أنا الساردة، ....وكأن أنا المتكلمة ليست أنا الكاتبة .

الدراسات العربية :-

ونأتي هنا إلى نقطة أخيرة وهي إمكانية مقارنة استقبال أعمال فدوى بالعربية قياساً إلى استقبالها بالألمانية .

صدرت بالعربية، عن فدوى وأشعارها وسيرتها، العديد من الكتب وأبرزها كتاب شاكر النابلسي "فدوى طوقان والشعر الأردني المعاصر " (١٩٦٣) وكتاب هاني أبو غضيب "فدوى طوقان : "الشاعرة والمعاناة " (١٩٨٤) وكتاب إبراهيم العلم "فدوى طوقان : أغراض شعرها وخصائصه الفنية " (١٩٩٢) وكتاب خالد أحمد سنداوي" الصورة الشعرية عند فدوى طوقان" (١٩٩٣) وكتاب هيام رمزي الدرونجي "فدوى طوقان " : شاعرة أم بركان " (١٩٩٤) وكتاب غريد الشيخ "فدوى طوقان " : شعر والتزام (١٩٩٤)، وكتبت عنها في الصحف والمجلات عشرات المقالات والدراسات، وقد فعل خالد سنداوي خيراً إذ أوردها في قائمة مصادره ومراجعه، كما أتى الدارسون العرب على أشعار فدوى وسيرتها، وهم يدرسون الأدب الأردني المعاصر وأدب المقاومة الفلسطينية، وعليه فإن إمكانية مقارنة الدراسات العربية بالألمانية تبدو أمراً غير منصف لصالح الدراسات الألمانية، ويمكن أن يقف المرء بإيجار أمام دراسة هيام رمزي الدردنجي[١٩]،لا لكونها الأفضل وإنما لكونها صادرة عن امرأة تعيش في العالم العربي .

يتكون كتاب هيام من كلمة تمهيدية ومقدمة وخمسة فصول هي :-

الاتجاهات الأدبية السائدة في عصر فدوى والمدارس الشعرية السائدة، وأثر المكان والزمان على نشأة فدوى وإنتاجها الأدبي، وفدوى من خلال نثرها، و فدوى من خلال شعرها، ومن خلاصة مطولة.

وكان الدافع وراء إنجازها كتابها دعوة جامعة مؤتة في الأردن الكاتبة لكـي تشارك في بحث ضمن مؤتمر "المؤتمر الأول للحركة الأدبية في المملكة الأردنية الهاشمية (١٠-١٣/٤/١٩٩٣). واختارت، بناء عليه، فدوى طوقـان، وأوضـحت سبب اختيارها :

"وبما أنني امرأة شاعرة، أحب الشعر وأهواه، وبما أن فدوى طوقان امـرأة شاعرة، وتعد رائدة من رائدات الحركة الأدبية الشعرية، ليس في فلسطين فحسـب بل في العالم العربي كله. فهل أقدر من المرأة الشاعرة على تفهم شعر وبوح فكر وأدب امرأة شاعرة مثلها " (ص١٠) .

من هذا المنطلق إذن كتبت هيام الدردنجي، وأخذت كما تقول تدعم "الكتـاب ببعض أرائي واتجاهاتي ومواقفي ونظرياتي في الأدب والشعر والحياة من أجـل تدعيم وجهة نظري النقدية"(ص١٠).

وتوضح الدارسة منهجها في دراستها، وتشير إلى استفادتها من علم الاجتماع مجال تخصصها، وعلى الرغم من اجتهادها ووصولها إلى نتائج تتطـابق أحيانـاً وتلك التي توصلت إليها نادية عـودة (ص٢١١،ص٢١٢،ص٢١٣...الـخ) إلا أن المرء يلحظ فارقاً في الأسلوب، تبدو نادية عودة دارسة موضـوعية تبتعـد عـن عبارات التمجيد والإعجاب إلا ما ندر، وتظهر هيام الدردنجي معجبة أشد الإعجاب بفدوى دون أن تتمكن من إخفاء ذلك، عدا إصدارها أحكاماً تحتـاج إلـى تـدقيق وتمحيص وإعادة نظر من مثل قولها :-

"وبسبب ارتباط الأدب بالتاريخ منذ أقدم العصور وحتى قيام السـاعة، فـإن الأدب مر وسيمر بمراحل من الازدهار والتدهور تتمشى طردياً مع حركة التاريخ " (ص٢٠) .

وقولها :-

"نستلخص من كل ما سبق ذكره، أن فدوى طوقان، شاعرة غنائية، فلسطينية حتى العظم، عاطفية حتى الوهم، مبدعة حتى العبقرية " (ص٢١١) .

وقولها :-

"ولهذا كانت فدوى موضع رفض واستنكار من كل من حولها، وكان كل ما حولها ومن حولها، موضع رفض واستنكار منها" (ص٢١٢) .

وقولها :-

"هذه هي فدوى طوقان الشاعرة المبدعة، أطال ا عمرها ... تظل فدوى سيدة الكلمة وشاعرة فنانة لا يشق لها غبار ... ورائدة من رائدات الحركة الأدبية النسائية، ليس في فلسطين وحسب، بل في الوطن العربي كله ... لم يشهد الوطن العربي كله، في عصرها وبين بنات جيلها، من كان له مكانتها الأدبية والشعرية ... وإن برزت نساء أخريات في ميادين كثيرة أخرى (٢٢٣و٢٢٤).

ونحن لا ننكر، مثلاً، قيمة فدوى طوقان شاعرةً، ولكننا عرفنا شاعرات عربيات معاصرات يتقارين معها مكانة مثل نازك الملائكة وسلمى الخضراء الجيوسي، كما أن فدوى لم تكن موضع رفض واستنكار من كل من حولها، فقد أعجبت بخالتها أم عبد ا وتقبل كل منهما الآخر، والشيء نفسه يمكن قولة عن صلتها بأخيها إبراهيم على سبيل المثال، وهذا ما أبرزته نادية عودة. ولا نتفق مع هيام في قضية العلاقة الطردية بين الأدب وحركة التاريخ، ولنا في أدباء المقاومة خير مثال ....الخ .

الهوامـــش

١- أنظر : الأدب الفلسطيني مترجماً إلى الألمانية، مجلة كنعان، الطيبة، عدد٨٨، كانون ثان، ١٩٩٨. ص٤٣ - ص٥٩ .

٢- أنظر : الدراسات الألمانية حول الأدب الفلسطيني، مجلة النجـاح للأبحـاث، العدد ١٢، السنة ١٩٩٨، ص ١٧٧ – ١٩٩ .

٣- صدرت المختارات عام ١٩٧٥ في (توبنغن) و(بازل) .

٤- أصدرت قصائد مترجمة لفدوى عن دار نشر بريطانية ١٩٨٨، وأعاد اتحـاد الكتاب في الضفة الغربية نشرها، وعلى هذه أعتمد وهي دون تاريخ .

٥- أصدرت بالإنجليزية موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، وأعادت المؤسسـة العربية للدراسات والنشر نشرها بالعربية عام ١٩٩٧، وعلى هذه أعتمد .

٦- حول حياتها أنظر : كفاح عودة، يسرة صلاح .
الموسوعة التربوية الفلسطينية، عدد ٣٣، نابلس ١٩٩٥ .

٧- حول حياتها أنظر : موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، ج١، ص١٧٤ .

٨- هذه الفقرات مأخوذة من مقدمة سلمى الخضراء الجيوسي لكتابهـا "موسـوعة الأدب الفلسطيني المعاصر " .

٩- صدر الكتاب عن دار نشر(Norton) عام ١٩٧٦، (لندن ونيويورك) .

١٠- صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨ عن دار نشر (بنغـوين) فـي بريطانيـا وحررته (C. Cosman) .

١١- صدر الكتاب عن دار نشر (Norton) عام ١٩٩٣، (لندن ونيويورك) .

١٢- صدر الكتاب تحت عنوان "أزهار الأشعار" في (لندن) عن مطبعة طيلورس للكتب الأجنبية، ويضم النص العربي للقصائد.

١٣- صدرت المختارات في (لندن) عن دار نشر (هاينه مان)، وتضـم قصـيدة واحدة لفدوى هي " أمام الباب المغلق ".

١٤- صدرت هذه المختارات عن دار نشر (بنغوين) وتضم قصيدة واحدة لفـدوى هي "إلى السيد المسيح في عيده".

١٥- من المختارات خاصة بفدوى وحدها ،وتحتوي على النص العربي وترجمته معاً ،وقد صدرت عن منشورات جامعة اليرموك ،وتضم القصائد التالية :- "في درب العمر" من ديوان "وحدي مع الأيام" و"في العباب" و"رؤيا هنـري" و"حصار" من ديوان "أمام الباب المغلق" و "لا انفصال" و"الصخرة" و"هبـة" من ديوان وجدتها، و"إلى صديق غريب" و"مدينتي الحزينة" و"إلـى السـيد المسيح في عيده" و"رسالة إلى طفلين فـي الضـفة الغربيـة" و"الطوفـان" و"الشجرة" و"لن أبكي" و"صخرة" من ديوان "الليل والفرسان"، و كما نعـرف فقد ترجمت سيرة فدوى إلى الإنجليزية والعبرية واليابانية والفرنسية .

١٦- ترجمت الدراسة إلى العربية ونشرت في مجلة "الكاتب" المقدسية في صـيف ١٩٩٢ .

١٧- ترجمت الدراسة إلى العربية وصدرت في نابلس عام ١٩٩٨ .

١٨- إعتمد عنا على طبعة دار الأسوار /عكا، الصادرة عام ١٩٨٥ .

١٩- صدر الكتاب عن منشورات الكرمل في عمان، ١٩٩٤ .

مختارات بالإنجليزية ظهرت فيها أشعار لفدوى طوقان

1- Arthur, J. Arberry, Modern Arabic Poetry, An Anthology with English verse translations, London, 1950 .

2- Joanna Bankier, The Other Voice, Twentieth – Century Women’s Poetry in Translation, New York – London, 1976 .

3- Issa J. Boullata, Modern Arab Poets, London, 1976 .

4- Carol Cosman, The Penguin Book of Women Poets, London, 1978 .

5- Abdullah al-Udhari, Modern Poetry of the Arab World, London, 1986 .

٦- سلمى الخضراء الجيوسي، موسوعة الأدب الفلسـطيني المعاصـر، الطبعـة العربية، ١٩٩٧، بيروت. (بالإنجليزية ضمن مشروع PROT، ١٩٩١) .

7- Carolyn Forche, Against Forgetting , Twentieth Century Poetry of Witness, New York – London, 1993 .

والقصائد التي ظهرت في هذه المختارات هي :-

١. وتساءلوا ما بالهـا عقلت ولطالـما جنّـت بنـا حبـ ـ ـ ـّاً

وتساءلَ البلبلُ عن صنْوِه في الروض فاستبكى عيون الزهور

ولم تظهر هاتان القصيدتان في ديوان فدوى .

٢. ترجم جزء من قصيدة " إليهم وراء القضبان " وتحديداً مقطع "من مفكرة هبة" .

٣. قصيدة " أمام الباب المغلق " .

٤. قصيدة " بعد عشرين عاماً " .

٥. قصيدة " إلى السيد المسيح في عيده ".

٦. قصائد : نبوءة العرافة، كفاني أظل بحضنها، الطوفـان والشـجرة، أنشـودة الصيرورة .

٧. قصائد : الوجه الذي ضاع في التيه، بعد عشرين عاماً، لا أبيع حبه، من وراء القضبان، أنشودة الصيرورة .

ولا أرى ضرورة لإعادة تسمية القصائد التي ترجمتها (شيمل) إلى الألمانية، ويسرة صلاح إلى الإنجليزية، فقد وردت في المتن، وأذكر هنا أسماء القصائد التي نقلها د.إبراهيم داوود / جامعة اليرموك إلى الإنجليزية، وقد ظهرت فـي كتـاب خاص باللغتين.

١. من ديوان " وحدي مع الأيام " قصيدة " في درب العمر ".

٢. من ديوان " أمام الباب المغلق " القصائد التالية : "في العباب" و"رؤيـا هنـري و"حصار".

٣. من ديوان " وجدتها " القصائد التالية : " لا انفصال " و" الصخرة " و" هباء ".

٤. من ديوان " الليل والفرسان " القصائد الشعرية التالية : " إلى صديق غريـب " و" مدينتي الحزينة " و" إلى السيد المسيح في عيده " و" رسالة إلى طفلين فـي الضفة الشرقية " و" الطوفان والشجرة " و" لن أبكي" و"حمزة ".

ويلاحظ أن القصائد التي اختيرت أكثر من مرة ، لترجمتها إلى الإنجليزيـة والألمانية هي :

إلى السيد المسيح في عيده وأنشودة الصيرورة وأمام الباب المغلـق وبعـد عشرين عاماً وحمزة و نبوءة العرافة ومن وراء القضبان، وأكثرهـا، كمـا هـو واضح ذو موضوع وطني -أي أن الذي لفت الانتباه في أشـعار الشـاعرة هـو القصائد التي عبرت فيها عن تجربة وطنية.

وسوف يبدو الأمر أكثر متعه والصورة أكثر وضوحاً، حين ينجـز المـرء قائمة كاملـة لما ترجم من أشعار الشاعرة إلى الإيطاليـة والفرنسـية واللغـات الأخرى.